مجلة منتدى الأستاذ

المجلد: 20 العدد: 01 السنة: ديسمبر 2024 الصفحات 605 ـ 616

نيتشه بين الدين والقيم الجديدة.

دراسة تحليلية نقدية

Nietzsche and the Transvaluation of Values : A Critical Study

سمية رابية[1]، * موسى معيرش[2]

[1] جامعة عباس لغرور، خنشلة (الجزائر)، soumia.rabia@univ-khenchela.dz

[2] جامعة عباس لغرور، خنشلة (الجزائر)، momaireche@univ-khenchela.dz

تاريخ الإرسال: 27/ 03/ 2024 تاريخ القبول: 28/ 05/ 2024

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز موقف نيتشه من الدين، ومحاولة فهم أبعاد المواقف الدينية والفلسفية في ضل اضمحلال القيم الناتجة عنها عامة، والمسيحية واليهودية والبوذية خاصة. إذ نجده يدعو إلى التخلي عن هذه القيم، التي يعتبرها تشكل قيما للانحطاط والانطفاء والتشاؤم وتحط من قيمة الإنسان وعظمة عقله ووعيه جاعلة منه إنسانا ذليلا مثيرا للشفقة، بسبب ما تحمله من أخلاق الرعاع الساخطة على الحياة الإنسانية، بوصفها معبرة عن التدني على كل ماهو أخلاقي حسب رؤيته، مما يجعله يدعو للتحلي بقيم جديدة تقدس الإنسان والعقل والحياة، قيما تعبر عن السيادة والعظمة والسمو.

الكلمات المفتاحية:

الدين

المسيحية

الإسلام

البوذية

ABSTRACT:

This study aims to highlight Nietzsche's stance on religion and to attempt to understand the religious and philosophical dimensions of this stance in the light of the decline of religious values in general, and Christianity, Judaism, and Buddhism in particular. Nietzsche seeks to abandon these values, which he considers to represent values of decay, extinguishment, and pessimism, diminishing the value of humanity and the greatness of its mind and consciousness. This led him to advocate for the cultivation of new values that sanctify humanity, reason, and life, values that express sovereignty, greatness, and nobility of the human mind.

Keywords:

Religion

Christianity ,

Islam ,

Buddhism

* سمية رابية

مقدمة:

يعتبر الإلحاد من أبرز سمات القرن التاسع عشر، كما يعد نيتشه من أبرز ممثليه، لغرابة أفكاره وخروجه عن المألوف وسباحته عكس تيار أفكار عصره.فنيتشه لم يعرف عنه في المسالة الدينية سوى إلحاده وانتقاده للمسيحية نقدا شديدا، خاصة للإنجيل الجديد الذي أنتجه بولس والمؤمنين به من أتباعه[1].

المتابع لأفكار نيتشه بصورة سطحية، يشعر وكأن الرجل يحاول قلب اتجاه حركة عقارب الساعة، أواستبدال القوانين الفيزيائية في الطبيعة. فهل يمثل هذا التصور موقف نتشيه الحقيقي؟ أم أن موقف الرجل أعمق بكثير مما يظهر؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما حقيقة موقفه، وما خلفياته؟ ثم هل جاء هذا الموقف نتيجة لمعرفة صاحبه بالدين، والأديان ككل، أم أنه جاء نتيجة لمعرفة قاصرة،تتجاوز معرفته بالمسيحية فحسب، باعتبارها الدين الذي نشأ عليه؟

للإجابة عن هاته التساؤلات، رأينا أن نستعين بالمنهج التحليلي النقدي، خاصة أن كتابات الرجل، تحتاج لمثل هذا المنهج، وموزعة في العديد من أعماله، كما أنه لا يمكن الحديث عن موقف نيتشه النقدي، دون إخضاعه هو الأخر للنقد.

1-معرفة نيتشه بالدين:

لمعرفة مدى إطلاع نيتشه بالدين بشكل عام نحتاج للعودة لحياة نيتشه وكتاباته في الوقت نفسه، خاصة إذا علمنا بأنه نشأ نشأة دينية مسيحية بروتستانتية، ولذا فإن معرفته بهذه الديانة تبدو لنا مهمة وأساسية، وهذا ما يظهر بوضوح في كتاباته، فكيف انعكست هاته المعرفة في كتاباته ومواقفه؟ إذ نجد هاته الكتابات مصدرا مهما للإجابة عن سؤالنا، حيث نجده يتصدى لمهاجمة المسيحية بقوة، رغم كونها الديانة التي تربى على قيمها، وهذا ما نقف عليه وفي معظم نصوصه، مما يجعلنا نخمن بأن هاته الديانة سبب مباشر فيما يتخذه من مواقف من الدين فيما بعد.

فهو يجد فيها قيما لا يمكن أن تجسد قيم الإنسان أو تعبر عنه، وهو ما جعله يسعى لقلب موازين القيم وتغييرها، أما عن معرفته ببقية الأديان فيكاد يكون يسيرا، لا يمكنه أن يبرر الانتقادات المعبر عنها، لأن جل تركيزه في مجمل أعماله ودراساته كان حول المسيحية واليهودية[2] التي جعل منها ممثلا للدين، مما جعله عندما يتحدث عن المسيحية فإنه يعني في أغلب الأحيان الأديان عموما، وبالتالي فهو حين يتحدث عن التعاليم المسيحية يكشف جهله بغيرها عندما يتخذ منها منطلقا لنقد الدين بصورة خاصة وللشرائع بصفة عامة.

والملاحظ لأفكار نيتشه الدينية، يجد بأنه لم يكن لديه أي روح دينية كامنة بداخله، إذ أن تربيته الدينية لم تترك بداخله أي تأثرا إيجابيا بها، بل على العكس من ذلك لقد كان لها تأثيرا سلبيا على حياته وأفكاره الدينية والفلسفية عموما. وهذا ما نجده عند فؤاد زكريا، عندما يقول: "لم يكن نيتشه يعترف بعقيدة من العقائد الشائعة،لا صراحة ولا ضمنا، وكل محاولة لكشف نوع من التأثير الخفي بالدين في تفكيره خاطئة، كتلك التي قام بها ياسبرز

في كتابه نيتشه والمسيحية باطلة من أساسها"[3]، غير أنهاته الرؤية الوثوقية عند فؤاد زكريا لا يمكنها أن تلغي تأثر نيتشه بالدين، فهاهو محمد إقبال أيضا يقول بهذا التأثير وليس كارل ياسبرز وحده، وهو ما نقف عليه في رسالة الخلود، إذ يلاحظان نوعا من التأثير غير الظاهر والخفي فيما يتعلق بهذه المسألة، ذلك أنه يعتبر نيتشه مؤمنا بالقلب ملحدا بالعقل.

وفي ديوان إقبال بيام مشرق، يقول معبرا عن حالة نيتشه:

ثار من ضعف الناسي قلبه .... فبرى الخلق المكمل لبه

فتنة في الغرب من ذي جنون.... كان في دار الزجاجي ضربه[4]

ذلك أنه لا يمكن أن نتجاهل النشأة الدينية له، فالرجل كان من أسرة متدينة:" فهو لم ينشأ في أسرة متدينة فحسب، وإنما ولد في أسرة عريقة مكونة من رجال دين، إذ كانت والدته سيدة شديدة التدين تنحدر من أسرة أنجبت العديد من الأساقفة والقساوسة، وهذا ما ينطبق أيضا على والده، الذي كان قسيسا معروفا، مما جعل نيتشه ينشأ متدينا، لدرجة أن أصدقاء الطفولة وصفوه بالمسيح في المعبد"[5].

وما حدث لهمن تغيرات جوهرية، فقد جاءت بعد تأثره بكتاب شوبنهاور العالم إرادة وتمثلا، فتحول تحولا كبيرا، أي من حياة من أجل المسيح إلى حياة لمعاداة المسيح، فشعر أنه مكلف بالرسالة التي بشر بها شوبنهاور، مع فارق بين رسالة المسيح التي بشر بها بولس، إلى رسالة شوبنهاور التي يبشر بها هو وهي نسخ الرسالة الأولى والقضاء عليها[6].

هذا المنطلق جعل من نيتشه، يتفنن في نقد المسيحية، التي يعتبرها تفتقر للوعي بالقوانين الطبيعية، وعدم القدرة على فهمها فهما صحيحا، حتى أنه جعل منها تفكيرا بدائيا، غير قادر على تقديم تفسيرات حقيقية وصحيحة، وكل ما تقدمه هو تفسيرات بدائية تقوم على طقوس، أقل ما يقال عنها أنها أقرب إلى الشعوذة والسحر من أي شيء أخر.

ذلك أن هاته الديانة تبنى على الاعتقاد بقوة جبارة خارج الإنسان، لا يمكن رؤيتها، وبالتالي فهي خفية، فالمسيحية تعتقد بأن هناك قوة جبارة خفية تتحكم في كل ما يحدث من حوادث طبيعية وكونية، وهنا يجد نيتشه الاختلاف القائم بين الدين المسيحي والعلم الطبيعي، فينتقل لمحاولة تفسير هذا التباين بإرجاع نشأة الدين بقصوره في الفهم والتفكير باعتباره لا يقدم إلا تفسيرات بدائية، لا يمكنها فهم مسايرة الوعي الإنساني ووقوفها في زمن النشأة، حينما كان الإنسان يفتقد للوعي القادر على فهم الظواهر الطبيعية وتفسيرها. مما يدفعه لتبرير عجزه بإرجاعه الوجود قوى خفية خارقة، نتيجة للخوف الذي كان يتملكه ويسيطر عليه، ويدفعه لتقديم تفسيرات لم يلاحظها بغض النظر عن قيمتها.

وتماشيا مع هاته الرؤية، فقد سعى أيضا لتفسير الشر، ولم يجد بدا من أن يبحث له عن مصدر، فلم يجد أفضل وأسهل وأكثر منطقية في زمانه من نسبته لقوى خارجية أيضا عن الإنسان أطلق عليها اسم الشيطان، مبررا بذلك النتائج المترتبة عن سلوكياته غير المقبولة، ويجعل كل ما يتعرض له عقابا مستحقا ، وهذا ما يؤكده نتشه في

قوله: "إن قطرة من الدم تزيد أو تنقص في المخ قد تسبب لحياتنا من الشقاء والألم ما يجعلنا نقاسي أكثر مما قاسى بروميثيوس من عقابه؛ غير أن أخطر ما في الأمر هو ألا ندرك تلك القطرة هي السبب، بل نعزو ذلك إلى الشيطان أو الخطيئة."[7]

وفقا لهذه الرؤية، يذهب نيتشه إلى أن الإنسان احتاج لاختراع الآلهة ليتمكن من مواجهة ما يصادفه من ألم عن طريق هذه الحيلة، وبهذا الاختراع الذي تمكن من الصمود عبر العصور،ذلك أن الخوف رفيقا للتقديس ومبررا له في الوقت نفسه. ويضيف نيتشه أن الإنسان المخترع للإله لم يكتف باختراعه خوفا من الطبيعة، وإنما استخدمه في عدوانه على غيره. فتحت راية هذا الاسم شن عدوانه وحروبه. من خلال هذا الطرح يستنتج نيتشه أن الإنسان يحط من قدره وقيمته، وذلك بإرجاعه كل ماهو خير وعظيم إلى قوى أعلى منه تفضلت عليه بذلك.

2- موقف نيتشه من المسيحية:

رغم النشأة المسيحية الصارمة لنيتشه كما أسلفنا، فإن التحولات التي حدثت في حياته بفضل كتاب شوبنهاور المشار إليه سالفا، جعله ينقلب ضد هاته التربية الدينية، ويجعل المسيحية تعكس الروح الدينية السالبة لإرادة الإنسان، المليئة بقيم الانحلال التي تهدف إلى إماتة الحياة لما تحمله من خطر يهدد الإنسان وحياته، وذلك لما تحمله من أوهام زائفة حول الخير والشر، وقتلها لكل الأفكار التي تجعل من الإنسان يحقق ذاته من خلال عيش حياته في شكلها الطبيعي.

فقد ادعت أنها أصلحت الإنسان، ولكن هي في حقيقة الأمر أفسدته. لقد أهانت الإنسان وجعلته مثيرا للشفقة، وأفسدت غرائزه الإنسانية بسبب طابعها الرعاعي، وقيمها الفاسدة التي جعلت من "كل قيمة لا قيمة ومن كل حقيقة كذبا."[8]، فكل قوة تأتي من الله، يأتي المرض منها أيضا.[9]

يركز نيتشه أثناء مهاجمته للمسيحية على التأكيد بافتقارها إلى القدرة على فهم القوانين الطبيعية، نتيجة لعجز واضعي هذا الدين لتفسيرها، وعدم امتلاكهم وعي وقدرة على فهم القوانين الطبيعية، ذلك أن القائمين على تفسير هذا الدين لم تكن لهم مثل هذه المعرفة، خلافا للعقلية العلمية التي ترى بان الحوادث الطبيعية تشبه إلى حد ما يجري داخل الذات الإنسانية الواعية.

ليصل للقول بأن الدين بدلا من أن يرفع من قيمة الإنسان أحط بها، بإرجاعه لكل ما استنتجه الإنسان بفضل وعيه لمصادر أخرى تعلو عليه، وبان هناك عقل يتجاوز عقله، ولذا فمن الضروري تحطيم الدين المسيحي الحامل للأفكار المنحطة التي تضر بقيمة الإنسان وتفقده ثقته بنفسه ويرجع له الحق في وعيه المسلوب، وفي ثقته بنفسه كذلك.

فكلما كانت فكرة الإله موجودة ينتج عنها إنسانا منحطا خاضعا مثيرا للشفقة، لان الإيمان يأتي على حساب تقدير الإنسان لنفسه ويسيء له حسب رأيه، ولا سبيل للسمو إلا بالتخلص من هذه الأفكار وذلك لن يكون إلا إذا تحلى بالشجاعة والقوة ليصبح بعدها سيدا على هذا العالم؛ فيخضعه له ويتحكم فيه ذلك أن: "أن وجود الله كان يغدو أكثر مستحيلا لو لم يكن يوجد أناس بلهاء."[10]

وبهذا يمكن القول بأن المسيحية رفضت العقل والحكمة والفلسفة والعلم، لكونها تقوم على العواطف والمشاعر، فهي ليست إلا انفعالات عاطفية تتمثل في الإيمان بالله وحبه وخشيته، مما يبرر الصرامة التي واجه بها هذا الدين خاصة في صورته الجديدة، خلافا للصورة الأولى التي كان عليها مؤسسه السيد المسيح ، مؤكدا على ضرورة محاربة نظام الكنيسة خاصة عندما خضعت لنظام القساوسة وطقوسهم الغريبة، مما يبرر التمييز بين المسيحية الأولى التي جاء بها يسوع الذي كان يحمل الحب والقيم الإنسانية بداخله، فالإيمان مستقر في الوجدان ومملكة الرب مستقرة في القلب "إذ ليس لها ماض، ولا مستقبل، وهي لن تأتي بعد "ألف عام"لأنها شيء نحسه بالقلب، وشيء موجود في كل مكان، ولا يوجد في أي مكان."[11] والثانية التي كانت تمثل حكم ونظام رجال الدين وهو ما جعل المسيحية تأخذ صبغتها الحالية، فهي ليست سوى منتوج ظهر مع التغيرات التي عرفتها المسيحية الأصلية بسبب انحراف رجال الدين والكنيسة التي شنت حربا عنيفة ضدها.إلا إن نيتشه رأى بأن المسيح لم يوفق فيما جاء إليه "لأنه أساء فهم دوافعه النفسية، ولهذا لجأ إلى الخلاص، فلو كان أحسن الفهم وتخلص من غلطاته وأخطائه النفسية والذهنية لما كان مسيحيا على الإطلاق."[12]

غير إن كل هذه الانتقادات حسب رأيه ليست حاسمة، ففي بداية الأمر كان الإنسان يحاول إن يثبت انه ليس هناك آلهة، واليوم يثبت الإنسان كيف استطاع أن يصنع الاعتقاد بوجود الرب؛ وفي الوقت الذي كان الإنسان يعمل على إبطال المسلمات والبراهين على وجود الله فأصبحت المسيحية تعمل عكس ذلك، وتعمل على الإتيان ببراهين جديدة أقوى من تلك التي فندت لتدل على وجود الرب. وفي الوقت الذي كان يعمل الفيلسوف على إثبات الأسباب التاريخية التي أدت لإيجاد الله ليفي بمقتضيات إنسانية في ظروف معينة، فعندئذ يكون قد قضى على ما تنطوي عليه الفكرة من ثبات وأزلية في نفس الوقت، وفي هذا قضاء على الفكرة ذاتها.[13]

وبالتالي فإن الروح الدينية والآلهة في جميع الأديان قد "وجدت" ويرجع سبب وجودها إلى ظروف معينة، ولاسيما في المسيحية اليهودية فهو مرتبط بشعوره بالذنب والرغبة في معاقبة نفسه، وهذه الرغبة لا تتجسد إلا في فكرة الرب ذاتها فالرب يقف في وجه الإنسان ويعيق سيره، إلا أن فكرة الخطيئة لا توجد عند المجتمع الإغريقي، فهو مثلا يؤله كل ماهو حيواني أو إنساني، ولا يلوم نفسه ولا يقلل من شانها.

ونتيجة للأخلاق المسيحية وتعاليمها، أصبح أتباعها لطفاء وغير انفعاليين، ولا عدوانيين، إتباعا لشخصية المسيحي المتصفة بالركود والكسل، والزاهدة في الحياة، فغرست في إتباعها هاته الصفات المقززة، ومن جهة أخرى فهي تضع العلم في المرتبة الثانية ولا تعطيه الأولوية.[14]

كما ينتقد الرجل الإيمان المطلق ومحاربة العقل ،بهدف ترسيخ الإيمان دون عقل، فالمسيحي يؤمن بالله. والله وحده يعرف. وبالتالي فان المسيحية بتعاليمها متعالية ولا يحق التشكيك فيها أو نقدها، فهي فوق كل نقد، بل فوق حق النقد. فحقيقة المسيحية ويقينها مرتبط بوجود وحقيقة الله، فهي إما أن تقف مع الاعتقاد باله أو تسقط معه. وهو ما يرفضه الرجل يخاطب فيخاطب مخالفيه قائلا: "يجب على الإنسان إن يفعل كل ما بوسعه لقبول

الرأي الأخر الذي هو ضـــد قناعاته ومعتقداته، وان يحاول العيش وفقا له حتى يســـتطيع إن يحكم عليه، أي إن يحصل على الحق بالحكم عليه، ولا يسمح له بالعودة إلى المذهب السابق إلا نتيجة لمقارنة منطقية."[15]

وبهذا نجد نيتشه لا يتوقف عند رفض المسيحية كدين، وإنما يرفض أيضا القيم التي تعبر عنها؟

3- موقفه من الإسلام:

لم يتكلم نيتشه عن الإسلام والعرب إلا نادرا، وفي إشاراته له كان يفصل بين الإسلام كديانة، والإسلام كحضارة. وحتى المتخصصين في فكر نيتشه ومؤرخي الحضارة الغربية لم يتطرقوا إلى هذا إلا قليلا جدا، وإما يتجاهلونه تماما.

كان موقف نيتشه إيجابيا من الثقافة العربية، وخاصة من الثقافة الإسلامية في الأندلس لأنها الأقرب إلى ذوقه فكان يتمنى العيش فيها واكتشافها عن قرب، ولهذا خيرها عن الحضارتين الرومانية واليونانية.

يقول نيتشه بان الحضارة الغربية والتعصب الكنسي قد حرما أوروبا من التعرف على حضارة الإسلام، بل سرقاه وداسا عليه، لهذا شن حربا على الصليبيين ووصفهم بالقراصنة الذين أرادوا سرقة ثقافة الشرق التي كانت متقدمة وغنية مقارنة مع الغربية التي كانت متأخرة وفقيرة جدا.

كما هاجم الألمان الذين حاربوا مع الصليبيين الذين خدموا الكنيسة ووقفوا إلى جانبها ضد كل ماهو نبيل وأصيل، يقول نيتشه: "ليس لك خيار حين تتواجه مع الإسلام والمسيحية؛ تماما كما هو الحال حين تتواجه مع عربي ويهودي، سلم وصداقة مع الإسلام، حرب بلا رحمة مع روما."[16]

كما حاول أن يعبر عن شخصية المسلم بالمدح والثناء على رجولته وشجاعته وغريزة القوة والهيمنة عنده، من خلال ما كتبه عن الإسلام كان يود دائما أن يعرف المزيد عن الثقافة العربية عامة والإسلامية خاصة، فكان يريد الهجرة إلى المغرب لكن هذا لم يتحقق مطلقا.

لكن ما يعيبه على الإسلام هو تأثره بالمسيحية في الإيمان بالعالم الأخر، حين يصرح بان مؤسس الديانة الإسلامية "النبي محمد " أخذ من "بولس" كذبة الاعتقاد بخلود النفس، وكانت برأيه "الشيء الوحيد الذي أخذه من المسيحية". إن إنشاء بولس لهذا ليس إلا وسيلة لإنشاء حكومة كهنوتية استبدادية، وسيلة لاستبداد الجماهير وتحويلها إلى قطعان.[17]

ويبدو جهل الرجل بالإسلام واضحا في كتاباته، مما يفسر تجاهله لهذا الدين في الكثير من الأحيان، ولا شك أن هذا الأمر يعود لعدم تلقيه معارف كافية فيما يتعلق بهذا الموضوع أثناء دراسته للمسيحية قبل إلحاده، أما بعد ذلك فقد شكلت له رؤيته المعادية للمسيحية عقدة اتجاه بقية الأديان، بما فيها الإسلام، مما جعله لا يخصص وقتا كافيا لدراسته، ولا جهدا للتعرف عنه رغم أن الموقف المستنتج من كتاباته يمكن وصفه بالمعتدل مقارنة بوجهة نظره من المسيحية مثلا.

مما يقودنا إلى التساؤل عن رؤيته للديانات الشرقية بعامة والبوذية بخاصة، خاصة إذا علمنا بأن هاته الديانات كانت محل اهتمام المثقفين الألمان بعامة، لم وجدوه فيها من روح افتقدوها في المسيحية.

4- موقف نيتشه من البوذية:

يبدو مما كتبه نيتشـــه في فلســـفة الدين أنه كان على معرفة بالبوذية، ولذا نجده يهتم بدراســـتها، لكن هذا الاهتمام لم يصل لدرجة الإعجاب، وإنما كان الهدف من ذلك تأكيدا لموقفه من المسيحية، وهذا ما دفعه لاعتبارها ديانة عدمية متفسخة، خاصة فيما يتعلق بعلاقتها بالديانة المسيحية.

ويضيف بأن ما تتفق فيه الديانتين المسيحية والبوذية بأن كلاهما عملا على اختراع نوع من الحياة والعادات يفيدان في تأديب الإرادة وإذلال النفس، ولتأسيس هذا النوع من الدين يلجآن إلى أصناف معينة من البشر وهم الذين يتمتعون بالهدوء واللطف، و يعيشون زاهدين في الحياة. فشكلت منهم رجال دين قادرين على التبشير بعدم عودة الألم الدنيوي.

وإذا ما كانت البوذية ترفض تملق المحسنين، مما يناقض الرؤية الكنسية وهذا ما يجعل نتشه يكتشف الفروق الجوهرية بين البوذية والمســـيحية، فرغم التقارب والتشـــابه الكبيرين بين الديانتين إلا انه يســـتنتج بأن البوذية أكثر واقعية من المسيحية، خاصة بعد أن شطبت فكرة الله من الأذهان تماما، فهي تعالج قضاياها بشكل موضوعي وتعالج مشاكلها دون استخدام مفهوم الإله لأنها ناتجة عن فكر فلسفي وحركة وعي إنسانية خالصة استمرت لسنين طويلة، مما مكنها من أن تكون الديانة الوضعية الوحيدة التي لا تتحدث عن نظرية المعرفة وتجعل من الصراع مع الإثم صـــراعا مع الحياة ذلك أنها تحارب الألم مولية اهتماما بالواقع على عكس المســـيحية التي تقول بمحاربة الخطيئة. ذلك أن بوذا عندما أنشأ ديانته كان يسعى لمساعدة الناس على محاربة الألم والتخلص منه في الحياة، ولهذا كانت ديانته موجهة للطبقات العليا والمثقفين، على عكس المسـيحية التي كانت ديانة الطبقات السـفلى والرعاع والمذلولين.

تربط المسيحية الألم بالخطيئة بينما البوذية فهي تقول بكل صراحة وموضوعية أن يتألم، ولهذا فهي لا تدعو إلى فضائل المسيحية عن المحبة والإيمان والأمل، والتي وصفها نيتشه بالحيل المسيحية. إن الإيمان نقيض العقل، والأمل في وجود حياة في الآخرة ينتج شعوب غير سعداء. فتصبح ديانة لا يسعى فيها المرء إلى الكمال فحسب، بل الكمال هو الحالة السـوية فيها. إن ما انتهى بالموت على الصـليب في المسـيحية كان بالنسـبة للبوذية بداية جديدة لحركة ســـلم وســـعادة فعلية على الأرض وليس مجرد وعود فقط، وهنا نلمس الفرق بين الديانتين البوذية والمسيحية: فالبوذية لا تعطي وعودا ولكنها تفي بها، في حين نجد المسيحية تعطي ألاف الوعود ولكنها لا تلتزم بها ولا تفي منها شيئا.[18]

وبهذا يصـــل نتشـــه للقول بأن البوذية ديانة متأخرة في المجيء، فهي ديانة تنمو بلطف ونعومة، والبوذيون أشخاص مفرط والتفكير، يحسون بالألم بسهولة شديدة.[19] وهي ديانة نهاية الحضارة وتعبها، والمسيحية لا تجد حتى حضارة في الوجود، لكنها تؤسس حضارة إذا ما احتاجت لذلك.[20]

5- موقف نيتشه من اليهودية:

سيكون من المهم التطرق لرؤية نتشه لليهودية، فهي ديانة ونظام حياة شكل منذ القدم مرجعا مهما للعديد من الأديان، وخاصة السماوية منها وبالأخص المسيحية، ولاشك أن البيئة التي عاش فيها الرجل كانت تعرف بصورة لا تقبل النقاش ولا النفي، وهذا ما جعله يصدر أحكاما قاسية في حق هذه الديانة، إذ يعتبرها أفسدت كل القيم عندما أخذ الكهنة المفهوم الجديد للإله لتحقيق أهدافهم، فصارت الأخلاق مناقضة للحياة، كما ارجع الكهنة تفسير كل الأشياء التي تصيب الإنسان إلى الله فما أصابه من خير فهو من الله وما أصابه من شر فهو عقابا إلهيا عن الآثام والمعاصي المقترفة من قبله، نافيين بذلك مبدأ السببية الطبيعة جملة وتفصيلا.

مما يجعل هذا المنطلق في رأيه من أوقح أشكال التفسير والذي وقف فيه المفهوم "علة ومعلول" على رأسه إلى الأبد. وكل ما أعقب ذلك غير طبيعي كان نتيجة ذلك.[21]

وبهذا أصبح إلههم إلها خاصا بالضعفاء تماما مثل إله المسيحيين، ولكن اليهود لا يرون أنفسهم لا مذلولين ولا معاقين بل يرون أنفسهم أخيار الجنس البشري وخيرون فهم رون أن إلههم يمثل الطيبة في ذاتها، وكل آلهة غيرهم لا تحمل صفة الخير والطيبة، ولهذا فكل الآلهة الأخرى شياطين.

ذلك أن كهنة هذا الدين عملوا على تزييف كل شيء في تاريخ اليهود، بداية بالكتاب المقدس الذي عمموه بكل الأبهة الكهنوتية وذلك بدس مشاعر التوبة على كل الخطايا والآثام التي ارتكبوها منذ ألاف السنين، وهكذا رفع اليهود أنفسهم على كل شيء فوق الأرض معتبرين إياه غير مقدس. كما أساؤوا أيضا استخدام اسم الله عندما أصبح الكاهن يقرر قيمة الأشياء وتسمى هذه الحالة "مملكة الله" وسموا أداة هذه الحالة "إرادة الله"، لقد كشف الله إرادته لموسى ومنذ ذلك الوقت أصبح لا يستغن عن الكاهن أبدا.[22]

إن معصية الكاهن من معصية الله وطاعة الكاهن من طاعة الله، بمعنى من أراد رضي الله عليه أن يخضع للكاهن، ولهذا استغل الكهنة هذا الجانب بكونهم يخلصون الأشخاص من الآثام، فوحده الكاهن يخلص من الآثام ولهذا فالكهنة يعيشون على آثام الناس، فهي المحركات الفعلية لسلطة الكهنة على المجتمع، فدستورهم الأسمى الله يسامح من يخضع ذاته للكهنة.[23]ولهذا نجد الناس ينحنون أمام الكهنة إجلالا وتقديسا، فهم حين يجلون الكهنة فهم يجلون شيئا ما في أنفسهم.

إن نيتشه المعادي لليهود وكتابهم المقدس من خلال ما جاء في كتابه عدو المسيح يرفض الجمع بين العهدين في كتاب واحد، لان هذا في نظره خطيئة كبرى ضد الروح القدس فالعهد القديم كتاب العدل الإلهي، لأنه يحتوي على خطابات وأشياء من طراز عظيم، ولهذا لا يمكن وضعه مع المدونات الهندية واليونانية لأنها لا تضاهيها بشيء.[24] فالإنسان يقف برهبة أمام هذا الإرث العظيم الذي ينقل لنا حياة الإنسان العظيمة في زمن مضى، وان المتطلع على العهد القديم يستطيع أن يفرق الكبير عن الصغير.

إن إلصاق العهد الجديد بالعهد القديم من كل النواحي نوع من الركود الذوقي بالعهد القديم، ليكونا معا كتابا واحدا، هو الإنجيل كتاب الكتب.[25]

إن الأديان تحمل في طياتها أخطارا مقلقة، والثمن المدفوع بسببها سيكون غاليا جدا ومرعبا، لان الأديان التي لن تكون وسيلة تربوية وتأديبية في يد الفيلسوف سوف تؤدي إلى عواقب وخيمة يصعب تحملها أو حتى تجاوزها خاصة إذا تركت لها السيادة المطلقة دون ضبط.إن نيتشه: "يدعو الناس –وحتى المؤمنين– إلى الإبداع على حق نوافقه معليه. وهم على حق حين يبدعون إذا ما فكروا في مفاهيمهم الدينية بالنسبة إلى عصرهم، كيلا يطغى التقليد وسمات الماضي على مقتضيات الحاضر وتطلعات المستقبل".[26] ولكننا نخالف نيتشه عندما رفض كل ما تعلمه لنا الأديان و أكثر ما تعلمه دان به الناس قبل ظهور الأديان، ويدين به ويعمل به الملحدون الكافرون أنفسهم.[27]

6–تمجيد نيتشه للفكر الإغريقي:

فيما يتعلق بالقيم التي يرفضها نتشه، ويطالب بالتخلص منها، وجدنا أن هاته القيم بخاصة هي القيم المعبر عنها بالقيم الناتجة عن الدين ككل، وبالأخص القيم اليهودية والمسيحية، مع درجة أقل فيما يتعلق الأمر بالقيم الإسلامية والبوذية. بجدر بنا أن نطرح سؤالا عن القيم البديلة التي يقدمها الرجل، وإلا كانت فلسفته سلبية تكتفي بالنقد والتشهير بالأخر دون قدرة على تقديم البديل، كما هو حال سقراط؟

بالعودة لمؤلفات نيتشه، نجد أن نقد القيم التقليدية مجرد منطلق، يسعى من خلاله إلى تحطيم المقدس، واستبداله بما ينتجه الإنسان، ولم يجد في الإنسان السابق عنه أفضل من الإغريق وفلسفتهم، لذا نجده يقول: " إن ما يدهش الذي ينظر في عالم الإغريق هو اكتشافه أنهم كانوا يقيمون احتفالات تشبه الأعياد بكل أهوائهم، بكل ميولهم الشريرة الطبيعية، وأنهم قد وضعوا برنامجا للاحتفالات التي كانت تقام لحوائجهم الإنسانية. هذا هو الشيء الوثني المحض في عالمهم، وهو ما لم ولن تفهمه المسيحية أبدا، وقد حاربته بضراوة واحتقرته بقسوة. لقد كانوا يعتبرون تلك الجوانب الإنسانية شيئا لا مفر منه، وكانوا يفضلون عوض أن يذلوها أن يُخَوِّلُوها نوعا من القوة من الدرجة الثانية، وذلك بإعطائها مكانا ضمن عادات المجتمع وطقوس العبادة، بل أكثر من ذلك لقد كانوا يُسَمُّون كل ما له شيء من القوة في الإنسان شيئا سماويا، إنهم لا يجْحَدُون الغريزة الطبيعية التي تعبِّر عن نفسها في المزايا القبيحة، بل يضعونها في مكانها."[28]

يقول كذلك: "إن لدى الشعب الإغريقي حكماء، في حين إن لدى شعوب أخرى قديسين."[29] فالقديس يطالبنا دائما بالإيمان الذي لا يعني سوى الكذب؛ و إلغاء لوعي الإنسان وحريته. إن الإغريقي كان يحب الحياة، ولم يكن يدور في ذهنه وجود عالم أخر أو حياة أزلية؛ فهو يمتلك غريزة الأصحاء ويقول: "حدود مملكتي هو العالم."[30]

من خلال هذا النص نكتشف إعجاب نيتشه الشديد بنمط الحياة اليونانية، التي كانت تمجد الإنسان وتقدر احتياجاته الطبيعية والبيولوجية وتشجعه على ممارستها، على عكس المسيحية التي كانت جدارا مانعا لممارسة كل احتياجاته وميولاته. ولم يختلف رأي نيتشه كذلك في حكمه على اليهودية التي كان يرى أنها لا تختلف عن المسيحية في شيء؛ وهذا ما ساعد على ازدهار الفلسفة عند الإغريق، ففي الوقت الذي كان فيه الدين يجرم

الفلسفة كتأمل عقلي وجعله أمرا مرفوضا، كان الإغريق يؤمنون بحرية العقل والتفكير، ويمنحون الفيلسوف شرعيته ويمجدونه؛ كما كانت الأسطورة مصدر قوة الحضارة الإغريقية، لأنها حررت عقل الفرد الإغريقي وجعلت وعيه يتدفق دون حدود.

كما إن الشعب الإغريقي كان يحمل آلهته كل أخطائه وهفواته، ويستعمل الآلهة لتبرير كل ما يقومون به من أعمال، ويستمدون منها كل الحق في الاستمتاع بكل ملذات هذا العالم؛ وهذا على خلاف اله المسيحية الذي يدعو أنصاره إلى ازدراء هذا العالم. ولهذا يرى نيتشه أن المسيحية هي عدوة كل ماهو جميل وممتع في هذه الحياة، وذلك لما تحمله من أخلاق العبيد التي ترفض كرامة الإنسان وعقله ولكل عظمة إنسانية.

وان كان نيتشه قد استثنى عقائد الإغريق ومجدها، فهو فعل ذلك مع الديانة الإسلامية حين رأى أن الحضارة الغربية منعتهم من التعرف على الإسلام؛ فالإسلام حسب رأيه دين يمجد إرادة القوة، يكفي انه رفض كل ماهو مسيحي فيقول: "إن الحق مع الإسلام حينما يزدري المسيحية، والحق معه ألف مرة لأنه يقتضي الرجولة."[31] الإسلام دين القوة، المسيحية واليهودية والبوذية أديان منحطة مريضة حسب رأيه.

يرى نيتشه إن الإنسان يخلق قيمة الأشياء بنفسه، يخلق قيمة الحياة بمقتضى إرادة القوة بإنشاء قيم تعزز من قيمة الحياة وانتعاشها، على غرار من يخلق قيم العبيد ليحمي بها نفسه من سيطرة الأقوياء وتسلطهم، ولهذا يجب عتق أنذال العبيد ومن يشبههم من هذه الأوثان التي خلقوها.

إن نيتشه يرفض هذه القيم لأنها ضد الحياة وتتجاهل القيم الحقيقية، فالدين يستعبد الشعوب بقيمه التي يفرضها عليه ويبني حاجزا بينه وبين الحياة الحقة التي خلقت من اجلها الإنسانية وتشجعه على الرضوخ لكل شيء حتى وان لم يكن لصالحه، وذلك باسم الرب الذي شوهت به حرية الإنسان وجعلته راكعا أمام قوى تفوقه، ولهذا وجب حسب رأيه إن ندرك بان الرب مجرد مرحلة، وليس قوة فاعلة.[32]

حسب نيتشه فإن أكبر مشكلة هي جعل القيم الدينية صالحة لكل زمان ومكان، إن العفو عن الأعداء ومشاعر الحب والتضحية من اجل الآخرين ورفض العنف وزرع مشاعر الرحمة والإحسان بين البشر ليست أخلاق سامية ورفيعة بل يجب التعامل معها على أساس أنها وليدة الظروف التاريخية والفكرية، والتعامل معها على أنها فضائل ضعف وليست فضائل قوة.

إن الدين القائم على القيم السامية، وأخلاق الاستسلام، وحياة الزهد التي ترفض القيم المادية والتعلق بالقيم الروحانية يرغم أتباعه على رفض كل الرغبات الدنيوية حتى يلبي ويستجيب لما هو أعمق وابعد منها، ويضحي بحياته في الدنيا من اجل تطهير نفسه والفوز بالحياة الأخرى يعد دينا باطلا.

"دعونا إذا نجرؤ على القول إن الدين هو من صنع الإنسان العادي وان الإنسان يكون أقرب إلى الحقيقة عندما يكون أكثر تدينا وثقة بالقدر اللامتناهي... فهو حين يكون خيرا يريد إن تتناسب الفضيلة مع نظام أبدي، وحين يتأمل الأشياء بتنزه عن الغرض يجد الموت مغيضا وعبثيا. فكيف لنا ألا نفرض أن الإنسان في هذه اللحظات عينها يرى أفضل ما يكون؟"[33]

يتابع نيتشه قوله: "إن هذه العبارات تضاد أذني وعاداتي مضادة تامة، إلى حد أنني حين عثرت عليها دفعني غيضي الأول إلى أن أدون على هامشها "الحماقة الدينية بامتياز!" ولم يلبث أن جاء غيضي الأخير واستلطف مع ذلك هذه العبارات بحقيقتها المقلوبة رأســـا على عقب. فكم هو أنيق ومتميز أن يكون للمرء أضـــداد يخصـــونه وحده."[34]يرى نيتشـــه أن الحياة هي القيمة المطلقة والمعيار الوحيد الذي نلجأ إليه في الحكم على الأشـياء ســواء بالحسن أو القبح، والقيم الحقيقية هي القيم التي يتمسك بها الإنسان الأعلى أو "السوبرمان" وهم من يطلق عليهم نيتشه مصطلح السادة.

إن فيلسوف المطرقة هدم أكثر مما بني وهذا ما انتهى به إلى الكفر، فنيتشه هو الفيلسوف الذي رأى موت الله في قلب الإنسان الغربي الحديث، وهذا ما جعله يبحث عن بدائل أخرى ترتقي بالحياة الإنسانية والإنسان إلى أعلى مستوى، وهذا ما أدى به إلى تأليه الإنسان حين أطلق عليه اسم "الإنسان الأعلى"، أو "الإنسان السوبرمان " وهذا موضوع أخر يستحق الدراسة مستقبلا.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر باللغة الأجنبية:

1-F.nietzsche, les œuvres philosophiques complètes tome XII, « fragement posthumes, automne 1887- mars 1888 », trad p. klossowski, n.r.f, Gallimard, 1986.

المصادر باللغة العربية:

1- فريديريك نيتشـــه، العلم المرح، ترجمة وتقديم حســـان بورقية، محمد الناجي، دار إفريقيا الشـــرق، الطبعة الأولى، 1993.

2- فريديريك نيتشـــه، إنســـــان مفرط في إنســـــانيته، ترجمة محمد ناجي، الجزء الثاني، دار إفريقيا الشرق،2001.

3- فريديريك نيتشه، ما وراء الخير والشر، تباشير فلسفة للمستقبل، دون ط، دون د.ن، دون سنة.

4- جمال مفرج، نيتشه الفيلسوف الثائر، إفريقيا الشرق، بيروت لبنان، 2003.

5- فؤاد زكرياء، نيتشه، مؤسسة هنداوي ، مصر، الطبعة الثانية، 2017.

6- عبد الكريم عنيات، نيتشـه والإغريق–إشـكالية أصـل الفلسـفة–، منشـورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2010.

7- محمد إقبال ، بيام مشرق، ترجمة عبد الوهاب عزام، مؤسسة هنداوي، القاهرة، سنة 2017.

8- موسـى معيرش، فلسـفة القيم ماهيتها طبيعتها، دار بهاء الدين، قسـنطينة الجزائر، الطبعة الأولى، سنة 2016م.

9- نبيل فياض: نتشه والدين ، دون ط، دون د.ن، دون سنة.

الهوامش والإحالات:

[1]- إنجيل يوحنا بالخصوص، وأعمال الرسل، زيادة على رسائل بولس، وهذا ما يمثل الجزء الأكبر مما يعرف بالعهد الجديد، والأكثر أهمية.

[2]- اليهودية هي المكون والمصدر الأساسي للمسيحية، حسب التعاليم البروتستانتية التي تلقاها نتشه في صباه.

[3]- فؤاد زكريا : نتشه، مؤسسة هنداوي، سنة 2017م، ص115.

[4]- محمد إقبال :بيام مشرق، ترجمة عبد الوهاب عزام، مؤسسة هنداوي، القاهرة، سنة 2017، ص92.

[5]- موسى معيرش: فلسفة القيم ماهيتها طبيعتها، دار بهاء الدين، قسنطينة الجزائر، الطبعة الأولى، سنة 2016م، ص121.

[6] - المرجع نفسه، ص 122.

[7]- فؤاد زكرياء، نيتشه، مؤسسة هنداوي ، مصر، الطبعة الثانية، 2017 ، ص116.

1-جمال مفرج، نيتشه الفيلسوف الثائر، إفريقيا الشرق، بيروت لبنان، 2003، ص40

[9]-المرجع نفسه-ص40.

[10]- نيتشه، العلم المرح، ترجمة وتقديم حسان بورقية، محمد الناجي، دار إفريقيا الشرق، الطبعة الأولى، 1993، ص135..

[11]- جمال مفرج، نيتشه الفيلسوف الثائر، مرجع سبق ذكره، ص41.

[12]- فؤاد زكرياء، نيتشه، مرجع سبق ذكره، ص 120.

[13]- المرجع نفسه، ص 118.

[14]-نبيل فياض، مرجع سبق ذكره، ص 97.

[15]- المرجع نفسه،ص 100.

[16]- المرجع نفسه، ص105.

[17]- المرجع نفسه، ص104.

[18]- المرجع نفسه، ص 108.

[19]- المرجع السابق، ص 108.

[20]- المرجع نفسه 108.

[21]- المرجع نفسه، ص 102.

[22]- المرجع نفسه، ص 103.

[23]- المرجع السابق، ص103.

[24]- المرجع نفسه، ص 104.

[25]- فريديريك نيتشه، ما وراء الخير والشر، تباشير فلسفة للمستقبل، دون ط، دون د.ن، دون سنة، ص86.

[26]- جمال مفرج، مرجع سبق ذكره، ص135.

[27]- المرجع نفسه، ص135.

[28]- فريديريك نيتشه، إنسان مفرط في إنسانيته، ترجمة محمد ناجي، الجزء الثاني، دار إفريقيا الشرق، 2001، ص 220.

[29]- عبد الكريم عنيات، نيتشه والإغريق-إشكالية أصل الفلسفة-، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2010، ص44.

[30]- المرجع نفسه، ص47.

[31]- جمال مفرج، نيتشه الفيلسوف الثائر، مرجع سبق ذكره، ص44.

[32]- F. nietzsche , les œuvres philosophiques complètes, T XIII, p172.

[33]- فريديريك نيتشه، ما واراء الخير والشر، مرجع سبق ذكره، ص83.

[34]- المرجع نفسه، ص83.